حصاريات

الياس ألماس محمد*

١ ـ يورانيوم

احتار الأطباءُ وعلماءُ الأجنّة في معرفة ماهية الجنين الذي سَقَطَ للتوّ من أحشاء امرأةٍ من الجنوب. فقد كان جنينًا على شكل جذورِ شجرةٍ هرمةٍ ضئيلةِ الحجم.

قال الذي وضع نظّارتَه للمرة الثانية

ـ إنّه يُشْبه أذرعًا متشابكةً لأخطبوط ميت.

واكتفى الثاني بالصمت، بعد أن تمتم بأنّها «ولادةٌ غريبة.»

في صالة الانتظار، حكّ حمود البايت أنفَه وقال:

ـ أتمنّى أن تلد زوجتي ولدًا يحمل اسمي.

في صباح اليوم التالي دَفَنَ حمود البايت زوجتَه المتوفاةَ، والجنينَ ـ الشجرة، وأمنيةً كان يتمنّاها.

٢ ـ يورانيوم

قضم الصغير جُوَيْسِم شيئًا من الطماطم بعد أن التقطها من أرض المزرعة في أقصى الجنوب.

فجأةً، تناثرتْ أكوامُ النمل: نمل أسود، نمل أبيض، نمل ذو حركات أفعوية، نملٌ بطيء الزحف، نمل مسرع. أكوام من النمل، أنيابها مدبّبة حادة مستقيمة، أو معكوفة تَخْرج أكوامُ النمل من قطعة الطماطم وتنتشر كالهشيم. تَغْرس أنيابها في الشفتين، تحيط بالفم، تتغلغل بين الأصابع، تتقافز من حدقتي العينين.

بعد غروب الشمس في ذلك اليوم الصيفي اللاهب في الجنوب، دَوَّتْ صرخةٌ لامرأة كانت تُكْنى بأمّ جُوَيْسِم، تَلْفظ أحشاءها.

٣ ـ يورانيوم

هبطتْ تلك التي تَحْمل مشعلَ الحرية. تحوّلتْ إلى قرد كثيف الشعر، يتقافز هنا وهناك. التقطه زنجيٌّ معدَمٌ من ظلمةِ شارعٍ خلفي. ضمّ القردَ إلى حقيبته العسكرية. بعد عدة أيام سوف يحطّ في الخليج جنديًا محاربًا حسب الأوامر.

بعد انتهاء «العاصفة» عثروا على جثّتيْن متلاصقتيْن: واحدة لزنجي معدم، والأخرى لقردٍ كثيف الشعر كثيرًا ما كان يتقافز هنا وهناك.

وعاد جميعُ القتلة إلى منازلهم ونسائهم، ينتظرون الأوسمةَ وباقاتِ الترحيب.

٤ ـ يورانيوم

نزلتْ تلك التي تَحْمل المشعلَ من على قاعدة التمثال واختفت. في تلك الليلة، استنفر الجميعُ: الرؤساء الأميركيون من القرن الحالي والقادم، مجالسُ الكونغرس السابقة والحاضرة، مهرّبو المخدرات، عتاة القتلة، الديموقراطيون والجمهوريون، أغنياء البترول، أصحاب الوشم، الممثّلون الجنسيون، مجالس إدارات المصارف وشركات الطيران، دعاة حقوق الإنسان، المخابرات الأميركية في الداخل والخارج، معتمرو العقال العربي، مرتدو السراويل الجينز. الجميع يبحث. يبحث.

---

* ـ كاتب من العراق وهذه «المعالجات» كُتبتْ قبل العدوان على العراق عام ٢٠٠٣

اقترح أبراهام لنكولن ضرورةَ البحث عنها في حيّ هارلم.

أكّد جورج بوش أنّها تستحمّ في مياه الخليج.

جَزَمَ جون كندي أنّها في جنوب هاڤانا.

أَقْسمت مونيكا لوينسكي أنّها في مزرعة بِلْ كلينتون

إلاّ أنّ المخابرات الأميركية أكّدتْ أنّ جنرالاً غبيًا اغتصبها، وهي الآن في طريقها إلى المنصة، في يدها مشعلُ الحرية، بعد أن أحتست ثلاثَ قنانٍ من الخمر.

٥ ـ يورانيوم

ظل حمود البايت يجوب الطرقات باحثًا عن حلمه. وهو يؤكّد أنّ الجنين تحوّل إلى طائر يحلّق في الأعالي، هناك بالقرب من القمر الفضيّ اللامع.

في آخر الليل، هبط الطائرُ على سطح داره. هبط إلى باحة الدار قبّل أمّه وأباه، ثم ما لبث أن طار مرةً ثانية.

وهكذا ظلّ حمود البايت يجوب الطرقات.

في آخر مرة، أقسم حمود البايت أنّ الجنين صار عمرُه عشرَ سنوات، واسمُه جُوَيْسِم، وفي الصف الرابع الابتدائي. لذا مزّق حمود البايت بطاقته التموينية التي فرضتها مذكرةُ التفاهم «النفط مقابل الغذاء.»

٦ ـ نقود كريهة

إنّها الورقة النقدية الأخيرة من فئة مائة دينار. إنّها الأخيرة من تلك الرزم التي بلغتْ نصفَ مليون دينار .. تلك الرزم التي كانت ثمنًا لبيع إحدى كُلْيتيْه.

«إذَن أنا الآن بكُلْيةٍ واحدة!» مطّ سعيد شفتيْه المتيبستين وهو يتطلّع إلى العملة الورقية الأخيرة. لا بأس، أكلتْ عائلتُه شيئًا من اللحم والتفاح والصمون الفرنسي والكباب المشوي، وشمّت رائحةَ السمك المشوي لأيام معدودة. لا بأس. منذ سنوات تعوّدتْ عائلتُه عشاءً من نقيع ماء الباقلاء. مرةً استمرت العائلة ثلاث ليال وهي تتعشى نقيعَ ماء الباقلاء، فقد كانت أكلةً رخيصةً تكفي عدة أيام وليالٍ.

رفع سعيد نظره إلى السماء، ثم خفض رأسه الهزيل إلى العملة الأخيرة من تلك الرزم التي كان مجموعُها نصفَ مليون دينار. تطلّع إلى أصابعه المتغضنة. ابتسم، فبانت نهاياتُ نواجذه السوداء المتآكلة.

في اليوم التالي، ثمة رجلٌ نحيلٌ، جافُّ الجسد، يبيع أصابعه

٧ ـ معالجة أخرى

استلم سعيد نصف مليون دينار ثمنًا لبيع إحدى كليتيْه. تطلّع إلى الرجل الذي اشتراها، إنّه قادم من وراء الصحارى والبحار. «إذن ارتحل جزءٌ من جسدي إلى ما وراء البحار والصحارى!»

خرج سعيد من المستشفى يحتضن مجموعةً من الرزم النقدية تبلغ نصفَ مليون دينار.

إذن عرفتَ يا سعيد، وامتلْكتَ عبارةَ «نصف مليون» التي تَسْمع عنها مرارًا حتى صارت بصاقًا من رذاذِ تبغٍ رديءٍ لأصحاب الملايين.

إذن ستَنْعم العائلةُ بدجاجات مشوية لعدة أيام، أو أطباق من الكباب والسمك المسكوف لعدة ليال.

إذن بإمكانك الآن اقتناء بطاقات من الدرجة الأولى لعائلتك في مسارح الغجر والضحك.

إذن ... إذن ... إذن.

حلم سعيد كثيرًا.

لكنْ، في نهاية الزقاق، انقضّ عليه لصٌّ، فسرق المال.

٨ ـ انتظار

عليه أن يبيع البيت إن اختار أن يتزوّج من تلك الفتاة التي يحبها؛ ذلك البيت الذي وُلد فيه في يومٍ ما قبل ثلاثين عامًا. تكاليف الزواج باهظة جدًا، قد تكلّفه بضعةَ ملايين. لكنْ في كل مرة يُقْنع نفسَه، ثمة كلماتُ غزلٍ تبدّد هذه الغيمةَ السوداء، ويبقى الأملُ في الانتظار. وهو في كل مرة يُقْنعها بالانتظار، نعم بالانتظار. إذ لو باع البيت فأين سيجد بيتًا يُؤْويه وزوجتَه وإخوتَه وأخواته؟

عليه أن يُقْنعها بالانتظار. إنّها السنة العاشرة وما يزل يُقْنعها بالانتظار.

ثمة أصواتٌ موسيقيةٌ تصدح في الخارج. خرج الذي اسمُه «فرحان» من بيته، ذلك البيت الذي وُلد فيه في يوم ما قبل ثلاثين عامًا. تعالت أصواتُ الموسيقى. تراصفت السياراتُ الأنيقةُ قبالة منزل الحبيبة، التي عليها أن تنتظر. خرجتْ حبيبتُه تَعْتمر إكليل عرسٍ برفقة رجلٍ متكوِّر الجثة يَكْبرها بثلاثين عامًا، يرتدي بذلةً أنيقة. ركبا سيارة حديثة الموديل. صدحت الموسيقى.

لحْظَتَها، عاد «فرحان» إلى بيته، ذلك البيت الذي وُلد فيه في يومٍ ما قبل ثلاثين عامًا، يُقْنع نفسَه بالانتظار.

٩ ـ كويظم

دسّ كويْظم أصابعَه في أكوام القمامة. التقط نعلاً بلاستيكية ممزّقة. وضع النعل البلاستيكية الممزّقة في الكيس الذي يَحْمله منذ الفجر. جَمَعَ حبّاتِ رزٍّ متناثرة، حبّاتِ رزٍ مبلّلةً بمرقٍ ما. دسّ الكيس في جيبه المتهدل من بنطالٍ قديمٍ مرقّع.

التقط نعلاً ثانيةً. ابتسم وقال:

ـ الرزق وفير!

نَثَرَ كومةَ قمامة أخرى من بقايا فضلات الليل في هذا الحيّ الفخم. التقط ثلاثَ علبٍ فارغة من الشامبو، وعلبتين فارغتين من «الصوصج»، وستَّ علبٍ فارغةٍ من علب السجائر الأجنبية الفاخرة.

ابتسم مرةً ثانيةً وقال:

ـ الرزق وفير!

نَثَرَ كومةَ فضلاتٍ أخرى. التقط أوانيَ بلاستيكيةً، سدادات مشروبات غازية، بقايا فضلات دجاجة، دجاجتين، ثلاث، مجرد فضلات. امتلأ الكيس الذي يَحْمله منذ الفجر. ابتسم كويظم للمرة الثالثة وقال:

ـ يا له من حيّ دسم. الرزق وفير، ولله الحمد.

واصل كويظم سيرَه. امتلأ الكيس تمامًا.

ولكنْ قبل شروق الشمس، وعند نهاية الزقاق، زقاقِ ذلك الحيّ الفخم، هَجَمَ كلبٌ ذو أنياب حادة يَحْرس منزلاً كبيرًا لرجل ممتلئ الجثة، أحمرِ البشرة.

بعد شروق الشمس استيقظ الحيُّ على جثةِ صبيٍ صغيرٍ رثّ الملابس.

١٠ ـ معالجة أخرى

امتلأ الكيس الذي يَحْمله منذ الفجر. ابتسم كويظم وللمرة الثالثة قال:

ـ يا له من حيّ دسم.. الرزق وفير، والحمد لله.

اتّجه كويظم صوب نهاية الزقاق، ذلك الزقاق الذي يتوسّط الحيُّ الفخمَ.

لكنْ، قبل شروق الشمس، وعند نهاية الزقاق، لمحه رجلٌ بدينٌ يَحْمل سوطًا اقترب محتدًا يلوِّح بالسوط.

ـ إذن أنت الذي...

١١ ـ معالجة أخرى

امتلأ الكيس الذي يحمله منذ الفجر. ابتسم كويظم للمرة الثالثة. قال:

ـ يا له من حيّ دسم وممتلئ: الرزق وفير، والحمد للّه.

اتّهجه كويظم صوب نهاية الزقاق.

لكنْ، قبل شروق الشمس، وعند نهاية الزقاق، لمحه صبيٌّ يَحْمل كيسًا ينثر أكوامَ القمامة. صبيٌّ رث الملابس، مثل كويظم.

هجم على كويظم. تشاجرا. قال الثاني الذي يَحْمل كيسًا ممتلئًا إلى نصفه ببقايا الفضلات:

ـ قلتُ لك مائة مرة إنّ هذا الزقاق خاص بي، فكيف تسرقني؟

استدراك

لم يوفّق المؤلف إلى ما جرى بعد ذلك لكويظم عند قاضي التحقيق، بعد أن عثروا على جثته جرّاء هجوم الكلب أو تشاجره مع الصبي الثاني... فاقتضى الاعتذار.

بغداد